

الفقيه المحدث الفاضل

□□ بالقضاء العادل يحق الله الحق . ويبطل الباطل ويأخذ كل ذي حق حقه .
فالقضاء العادل حصن المظلومين وأمان الخائفين . وسيف مسلط على رقاب
المعتدين . به يضرب على أيدي المجرمين ويبطش بالظالمين . الذين يفسدون في الأرض
ولا يصلحون . حتى يفيء الظالم إلى رشده ويقلع المجرم عن غيبه □□

لم تكن الأحوال حسنة بين القاضي والأمير .
فالقاضي لا يهاب أحداً إلا الله . ولا يخفي رأسه
لمخلوق . ويجهر بالحق ويدافع عنه مهما كلفه من
شتم . وكان أحمد بن طولون . يعرف ذلك عن
القاضي بكار ولا يجمله .

كان بكار القاضي في مجلس ابن طولون وجاء
رجلان يختصمان ، فقال الأمير للقاضي احكم
بينهما ، فنظر في أمرهما ورأى أن القضية يفصل
فيها اليمين ، فوجهه على أحدهما فحلف فلما فرغ
من يمينه قال الخصم الآخر إنه كاذب وأخذ يدلل
على كذب يمينه فقال أيها القاضي استحلفه برأس
الأمير فصاح القاضي غاضباً : ويحك إنه قد
حلف بالله وهو أعظم من الأمير ، فقال الخصم
بل استحلفه برأس الأمير . وكان الأمير
جالساً ، فقال القاضي للخصم : أتخلف برأس
الأمير؟؟ قال الرجل لا!!! فصاح القاضي في
الخصم قائلاً : يا عدو الله تحلف بالله خالق
السماوات والأرض وتمتنع أن تحلف برأس مخلوق
مثلك ، وأخذ ينظر إلى الأمير تارة والمتخاصمين
تارة أخرى وهو يقلب كفيه ويضرب إحداهما
بالأخرى .

كان يتحرى العدالة فلا يجيز شاهداً إلا بعد أن
ثبتت عنده أهليته لها . من ذلك :
قال أبو حاتم ابن أخي بكار : قدم على عمي
رجل من البصرة له علم وزهادة ونسك فآكراه
وقربه وأدناه . وذكر أنه كان معه في المكتب
فمضت به الأيام فجاء في شهادة ومعه شاهدان من
شهود مصر نودها عند عمي فما قبل شهادته ،
فقلت لعمي : هذا رجل زاهد وأنت تعرفه ! قال
يا ابن أخي : ما رددت شهادته إلا أنه كُنَّا صغاراً

المدعين أمامه ويحقق ويدقق . فلا يصدر حكماً
إلا بعد تحقيق وتعميق ، وكان كثيراً ما يجاسب
نفسه .

كان أحد البكائين التاليين لكتاب الله
عز وجل ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه
وعرض عليها فقص جميع من تقدم وما حكم به
ويكى ، وكان يخاطب نفسه ويقول : يا بكار
تقدم إليك رجلان في كذا وكذا وتقدم إليك
خصمان في كذا ، وحكمت بكذا فما يكون
جوابك غداً؟ كان يكثر الوعظ للخصوم ويتلو
عليهم قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ
يُشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمناً قليلاً... إلى
آخر الآية ﴾ آية ٧ آل عمران .
وكان يجاسب أمناه في كل وقت ويأبى عن
الشهود في كل وقت .

قضاياه ومواقفه كثيرة ، نذكر منها على سبيل
المثال لا الحصر :

قضية بين القبائل

مات رجل وعليه دين للأمير فطلب عامل
الخارج من أحمد بن طولون أن يأمر القاضي
- بكار - ببيع دار المتوفى فأرسل إلى القاضي في
ذلك فقال القاضي - وكان لا يقضي إلا بعد أن
ينتبت - حتى يثبت عليه الدين فأئبته ، وسأله
البيع فقال القاضي بكار حتى يثبت عندني أنه
ملكه . فأئبته ، وسأله البيع . فقال بكار
القاضي : حتى يحلف من له الدين فجاء ابن
طولون وحلف أمامه ، فقال القاضي بكار : أمَّا
الآن فقد أمرت بالبيع .

في تاريخ القضاء روائع يهندي بها الضال ،
ويرنو إليها الجاحد ، تنير الفكر وتهدي إلى البر
وترشد إلى الغاية ، وتبين الحقيقة بما فيها من
موعظة وعبرة .

وقاضينا الذي ترجم له اليوم بكار بن قتيبة
قاضي من قضاة المسلمين وعلم من أعلام
السنة .

قال عنه الحافظ السيوطي : كان حافظاً
للحديث ومحدثاً ، ولما حبسه أحمد بن طولون
كان يحدث الناس وقد اجتمعوا حول نافذة من
نوافذ السجن فكان يشرف عليهم ويحدثهم .

وقال عنه ابن خلكان : ظهر من حسن سيرته
وجبل طريقتيه ما هو مشهور ، ولي قضاء
مصر أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر وستة
عشر يوماً .

وقال عنه ابن تغري : وكنية القاضي بكار
أبو بكرة القاضي البصري الحنفي وهو أحد
الأئمة الأعلام ، كان عالماً فقيهاً صالحاً ورعاً
عفيفاً ثقة ، مات وهو أعلم أهل زمانه بالديار
المصرية .

نسبه وصفاته

بكار بن قتيبة : هو القاضي أبو بكرة بكار بن
قتيبة بن أبي زرعة بن عبد الله بن بشر بن
عبيد الله بن أبي بكرة نفع بن الحارث بن كلدة
الثقفي صاحب رسول الله ﷺ .

كان القاضي بكار بن قتيبة يتمتع بذاكرة قوية
وحجة ناطقة . يهجر الإنسان بذهنه اللماح . .
لا يكاد يخطيء في حكم ولا يبنو به رأي ، يناقش

(بكار بن قسيه)

قال رسول الله ﷺ : « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة .
رجل عرف الحق ففرضه بخلافه فهو في النار ، ورجل لم يعرف الحق ففرضه بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل عرف الحق ففرضه به فهو في الجنة » .

وكلاهما قريب من قبره هذا بمرضه وذلك بسنه ، وراجع ابن طولون أعماله وهو طريح الفراش فرأى أن مظلوماً أودع غياهب السجون والأمير على آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فأخرجه إلى دار أرحب وأوسع - محمداً إقامته - ثم كتب إليه يطلب منه العفو والصفح عما بدر منه والسماح بما أصابه ، فأرسل إليه القاضي بكار بن قسيه رداً على رسالته .

[أنا شيخ كبير . وأنت عليل مدنف والمتلقى قريب والحكم الله]

واشتد المرض بابن طولون واقرب أجله وحضره الموت فكان يبكي ويقول : [هو شيخ كبير وأنا عليل مدنف والمتلقى قريب والحكم الله] وأسلم ابن طولون، وروحه لبارئها وكان القاضي كان ينظر بعين الغيب أو يقرأ صحائف الغد [المتلقى قريب] فلم تمض سوى أربعين ليلة حتى أسلم القاضي بكار بن قسيه وروحه لله ليكون [الحكم الله] .

القاضي عن موقفه ، فغضب عليه الأمير غضباً شديداً أخرجه عن طبيعه ، فضربه بعود من حديد ، وأمر أن تمزق ثيابه ، وأن يسحب على وجهه مسلوب الجلباب ، وأودع السجن فما ضعفت عزيمته ، ولا وهنت إرادته ، وأودع في غرفة ضيقة - زنزانه - لا يستطيع أن يمد فيها قدميه ، تتلقى ذلك صابراً محتسباً ، وحبه أنه قال كلمة الحق ، ثم نقل إلى غرفة - زنزانه - أخرى أكثر طولاً وعرضاً ، ورغم حبه وما بيعته السجن من رهبة في نفوس المظلومين إلا أن القاضي بكاراً كان يحافظ على أداء الصلاة في أوقاتها مع سننها ونوافلها ، وكان السجن بالنسبة للقاضي خلوة لجأ فيها إلى الله متعبداً فارثاً للقرآن الكريم شاشعاً لله رب العالمين .

كان القاضي بكار بن قسيه يتنسل كل أسبوع ، ويتطهر ويلبس أنظف ثيابه ، ويذهب إلى الباب يريد الخروج لصلاة الجمعة فيمنع من ذلك ، فيرفع بصره إلى السماء قائلاً : [اللهم فاشهد] ثم يقول [لقد صنعت ما علي] .

وامتدت أيامه في السجن ، وكان القاضي إماماً في علم الحديث صارباً بسهمه وفر في الجرح والتعديل ، عارفاً بوجوه الضعف والقوة في متن الحديث ، فطلب أصحاب الحديث من الأمير أحمد بن طولون أن يسمح لهم في السماع منه والكتابة عنه والإفادة من علمه الواسع الفياض فأذن لهم ، وكان يجذت الناس وهو في السجن من طاقٍ فيه نسمعوا منه وكتبوا عنه .

وفاته :

هاجم المرض الأمير وهاجم السن القاضي

وكنّا على مائدة عليها أرز وفيه حلوى ، فتعبت الأرز بإصبعي ، فقال لي « أخرجتها لتفترق أهلها » (آية : ٧١ الكهف) فقلت له أتهزأ بكتاب الله تعالى على الطعام ؟ ثم أسكتت عن كلامه مدة وما أقدر على قوله وأنا أذكر ذلك منه .

ثباته على الحق رغم سجنه :

كان أحمد بن طولون أميراً على مصر وكان الموقف ولياً على العهد ، وحدث خلاف بين الأمير أحمد بن طولون والموقف ولي العهد ، فأصدر الأمير أمراً بخلع الموقف من ولاية العهد ولتعه على المنابر والشهيرة به ، ولم يعارض في هذا إلا القاضي المؤمن الصادق الورع التقي بكار بن قسيه القاضي ، وبدأ الخلاف بين القاضي والأمير واشتد الخلاف بينهما ، وغضب الأمير على القاضي وغضب القاضي من الأمير ، وهاجت مشاعره وغلت حفيظته ، فما للأمير أن يأمر القاضي أو يلزمه بعمل لا يرضي ضميره ، وأحس بكار بنندر العاصفة تقترب منه وبطش السلطان في الطريق إليه ، والسجن يستعد لاستقباله .

حاول الأمير استمالة القاضي ولكنه فشل في ذلك ولم يستطع الوصول إليه . إذاً فلا بد من إقصائه وإبعاده عن الناس ، بل لا مانع إذا أصبر على موقفه من سجنه وتعذيبه ، عسى أن يكون ذلك رادعاً للقاضي أو سبباً في تغيير موقفه .

أحضر الأمير القاضي وحاول الوصول إلى حل وسط . فلم يجد لذلك سبيلاً ، ولم يتنازل

الهواصش

(١) طبقات الحفاظ للسيوطي ص ١٨ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٨ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٨٠ .

(٥) ٦٠٥ ، ٧٠٧ ، ٨٠٧ راجع بالتفصيل البداية والنهاية لابن

كثير ج ١ ص ٤٥ ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ١

ص ٢٧٩ إلى ٢٨٢ والنجوم الزاهرة ج ٣ من صفحة ٢ إلى

ص ٤٩ .